

الأدب التفاعلي وجماليات التلقي

الدكتورة:إلهام بوطوب /د:الدكتور سعيد الوكيل
مغرب / مصر

"إذا غاب الجمال؛ تعرّسَّ التجمُّل"

تشهد الحضارة الإنسانية حالة تحول من الشفاهية إلى الكتابية إلى الرقمية، وهي حالة لا يمكن أن تكون مفصلية بآثرة؛ إذ تمتد عبر الزمن حتى تصل إلى هيمنة أدوات اتصالية بعينها تترك أثرها المباشر في طرائق الإبداع وتجلياته.

النص التشعبي والنقد الأدبي

يعتقد الباحثون المتحمسون لفكرة النص التشعبي أننا الآن نشهد ثورة في طريقة كتابة العمل الأدبي. فأولاً، يبدو أن مبدأ تعدد الأصوات الذي جاء به ميخائيل باختين ينطبق على هذه الفكرة تمام الانطباق. ويبدو كذلك أن رغبة ميشيل فوكو في حرية تداول النصوص، وحرية استغلالها وتركيبها وتفكيكها وإعادة تركيبها تتحقق في هذه النصوص؛ إذ يترأى النص لميشيل فوكو في كتابه "حفريات المعرفة" عبر مصطلحات الروابط والشبكات؛ حيث يشير إلى أنه لا يمكن الإمساك بحدود كتاب ما وتخومه لأنه مغمور في نظام من مرجعيات كتب ونصوص وجمل أخرى، فهو أشبه بعقدة داخل شبكة من المرجعيات.⁽¹⁾ ويبدو أن تصور جان فرانسوا ليوتار لحركة ما بعد الحداثية، التي من بين خصائصها الأساسية إلغاء البناء الهرمي ثم تساوي أجزاء الكل من حيث قيمة كل منها، قد تجسد في أعمال أدبية تجريبية كتبت بأسلوب النص التشعبي مع إلغاء خطية القراءة وإتاحة حرية التجوال بين أجزاء العمل، باتباع خطوط الاتصال الملائمة بين مختلف المواقع.

ويعد تصور الشبكة الذي دعا إليه بارت في كتابه S/Z، فضلاً عن العلاقة النشطة بين القارئ والنص التشعبي، تجسيدا للغاية المثلى التي ينشد فيها نصوص القراءة الإيجابية في مقابل نصوص القراءة السلبية. ولكن هذا لا يعني أن هذه النصوص تقتضى قارئاً نشطاً وفعالاً، بل يعنى أنها تقتضى

(1) انظر:

George P. Landow: The Definition of Hypertext and Its History as a Concept:
<http://www.cyberartsworld.org/cpace/ht/jhup/history.html>

مؤلفا مشاركا (مع عدم وضوح الحدود الفاصلة بين القارئ والكاتب) يعلق على النصوص ويثريها بروابط - أو خطوط اتصال - جديدة يتيحها للكتاب المشاركين في كتابة العمل مستقبلا.⁽²⁾

إن رولان بارت يصف في كتابه S/Z نوعا من النصوصية المثالية يلتقي بدقة مع ما أصبح يعرف بالنص الشعبي على الحاسوب؛ فذلك النص يتكون من كتل من الكلمات (أو الصور) المترابطة إلكترونيا عبر مسارات عدة وسلاسل أو أطراف ذات نهايات مفتوحة، في حالة علاقات نصية لا تنتهي أبدا، وتوصف تلك العلاقات بمصطلحات: الرابط والعقدة والشبكة والمسار. إنه -كما يقول بارت- مجردة من الدوال وليس بناء من المدلولات.⁽³⁾

وترصد كاتلين بيرنت في مقال لها عام 1993م⁽⁴⁾ أهم المبادئ التي تحكم النص الشعبي عند تخطيطه، تأسيسا على أحد أعمال دلوز وجوتاري الصادر في عام 1987م⁽⁵⁾، وكلها مبادئ تقوم على نفي مبدأ الخطية وتأكيد مفهوم التفاعل، وتلك المبادئ الخمسة هي:

- الاتصال وتغيير خصائص الاتصال: وهما مبدأان يشيران إلى أن كل نقطة فيه قابلة للاتصال بغيرها، بدون الخضوع لهيمنة مركز ما، حيث يكون للمتفاعل مع النص القدرة على تغيير أنماط ذلك الاتصال.
- التعددية: وتعني القدرة على دعم التفكير التراتبي والقفزات المعرفية كذلك، بحيث يمكن أن تتعدد أساليب التفاعل مع بناء مفرد أو تنوع الأبنية نفسها، وهذا المبدأ مرتبط أيضا بتنوع المتفاعلين مع النص وعدم إمكان توقع استجاباتهم.
- خلق علاقات احتمالية: فالنص الشعبي يدعم نمطين سائدين في البناء التراتبي هما المسارات المخططة مسبقا والمسارات المتوقعة أن يخلقها المستخدم، لكن النص الشعبي لا يقف أمام أي اختيار حر غير متوقع، فهناك دائما علاقات ينتظر في وقت ما أن يماط عنها اللثام.
- مبدأ مرونة الإطار المكاني: وهو ما يعني أن أي مسار يتبعه المتفاعل هو مسار لا يفضل غيره ولا يفضل سواه، وللمتفاعل الحق في أن يخلق أي مسار شاء أو أن يتبع خطى شخص سبقه، فليس هناك سياق محدد، بل سياقات تتعدد بحسب المتفاعلين مع النص، وهو في ذلك يشبه الإبحار في الفضاء.

(2) انظر: بابيس ديرميتزكيس: النص الشعبي: ما وراء حدود النص، ت: عادل عناني، ضمن: عز الدين إسماعيل (محرر)، النقد الأدبي على مشارف القرن، ص 382.

(3) انظر:

George P. Landow: The Definition of Hypertext and Its History as a Concept:

<http://www.cyberartsweb.org/cpace/ht/jhup/history.html>

(4) Kathleen Burnett: "Toward a Theory of Hypertextual Design", Postmodern Culture, v.3, n.2, January 1993.

(5) G. Deleuze & F. Guattari : A Thousand Plateaus. (Minneapolis: U of Minnesota P, 1987).

ولقد سبق أن استخدم الناقد الفرنسي "جيرار جنيت" مصطلح المتعاليات النصية للإشارة إلى مختلف العلاقات بين النصوص، وجعل من الإمكانيات التي تندرج تحته "التعلق النصي" و"التناص"، وهما مفهومان أساسيان في مجال النقد الأدبي. لكن دخول النص الإلكتروني بقوة إلى السياق المعرفي يدفع المهتمين به إلى تبني مصطلح جديد هو "التفاعل النصي" في مقابل "المتعاليات النصية"، وإلى استخدام "الترابط النصي" في مقابل "التعلق النصي". السبب في ذلك أن العلاقات التي سبق أن أشار إليها جنيت تربط -في علاقة خطية- بين نص لاحق وآخر سابق، وهي علاقة وثيقة الصلة بالنصين الشفاهي والكتابي، أما النص الإلكتروني فأدى إلى وجود علاقات ومفاهيم جديدة، فالترابط النصي يتجسد في النص الإلكتروني - من خلال الروابط التي تتم من داخل النص نفسه، ويسمح لنا هذا بالانتقال داخل النص وفق ما تستدعيه عملية القراءة، كذلك لا يتيح لنا الترابط التحرك بين النصوص اللفظية فقط، بل الانتقال كذلك بين علامات غير لفظية، مثل الصوت، أو الصورة، أو الخارطة، أو اللوحة، أو الصورة الحية أو المتحركة، ويعرف هذا التوسيع بـ "ترابط الوسائط". ومعنى ذلك أن مفهوم الترابط يتجاوز "اللفظي" إلى أنظمة متعددة. وهذا الشكل من الترابط بمعنييه ما كان ليتحقق لولا التطور الذي تم مع استخدام النص الإلكتروني، وتوظيف الوسائط المتعددة. وعلى الرغم من التباين المسجل بين التعلق النصي والترابط النصي، فإننا نراهما معا يرتبطان بـ "التفاعل النصي" بوصفه مفهوماً جامعاً يتسع لمختلف العلاقات بين النصوص، سواء كانت لفظية أو غير لفظية، وسواء قدمت شفاهياً أو كتابةً أو إلكترونياً".⁽⁶⁾

وإذا كان النص الإلكتروني التشعبي يتسم -من ناحية العلاقة بالنصوص- بأنه "يتضمن" نصوصاً مثلما يفعل النص العادي، فإنه يختلف عنه في أنه "ليس خطياً" كما أنه لا يعتمد على "التلفيز" أي نقل النص الآخر من نظام العلامات غير اللغوي ومنحه بعداً لفظياً، بل يعتمد على "تعدد الوسائط".

يمكن من ناحية أخرى ربط النص التشعبي بنظرية التفكيك، حيث تتعدد المراكز داخل النص، ومن ثم تتعدد الرؤى ولا يمكن الخضوع لرؤية واحدة موجّهة، إذ يلفتنا التفكيك إلى مراوغة النص حيث لا تتأزر كل عناصره في إطار رؤية واحدة كلية إلى حد أنه يقوض نفسه.

(6) سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 102.

النص التشعبي والتفاعل

يجعل الوسط الإلكتروني التفاعل بين القارئ والمتلقي ممكناً، أو هو، بالأحرى، يوهماً، فى براعة فائقة وتعقيد شديد، بإمكان حدوث هذا التفاعل. فبرنامج الحاسب بإمكانه قبول مجموعة مقررة مسبقاً من الأسئلة أو الأفعال، ثم الرد عليها بعنصر من بين مجموعة الإجابات والاستجابات المقررة مسبقاً التى يحتوئها. وهذه المجموعة يمكن أن تكون كبيرة جداً، ويمكنها فى بعض الأحيان أن تحاكي التفاعل بين كائنين يتمتعان بحرية الإرادة محاكاة قابلة للتصديق. ولكن أى سؤال يقع خارج المدى الذى يشملها البرنامج يستصدر من الحاسب رسالة بوجود خطأ بدلاً من سؤال يقول: "ماذا تعنى بهذا؟".

ولكن الذكاء الاصطناعى بمعناه الصحيح قد يتمكن من توجيه هذا السؤال إلى مستخدم الحاسب، بل لعله يضم السؤال إلى مجموعة الإجابات التى يتضمنها البرنامج. ولعله يكون قادراً على التعلم؛ أى اكتساب المعرفة. وبعض برامج الحاسب المتاحة اليوم قادرة على التعلم طالما كانت المعرفة الجديدة فى داخل حدود مرسومة مقدماً. وتعد الألعاب القائمة على المحاكاة مثلاً جيداً على ذلك. فبإمكاننا فى هذه الألعاب وضع تصميم يضم أشخاصاً وأسراً ومؤسسات تجارية ومستوطنات بشرية ومجتمعات كاملة، ثم إعطاء ما صممناه ملامح وموارد وقدرات محددة، وبعد ذلك يمكننا أن نرى ما سوف يحدث لكل ذلك. وفى هذا شىء من الشبه بالأدب. فنحن نبتدع شخصيات، ونضعها فى بيئة، حتى نرى ما سوف يحدث لها. بل يمكننا أن نستحث أحداثاً خارجية، مثل الكوارث الطبيعية وما شابه. أو بإمكان الحاسب الآلى نفسه أن يفعل ذلك. إننا نلعب لعبة نتظاهر فيها بأننا نقرر مصائر الشخصيات، وهذا ما يفعله الروائى بالضبط. ومن البديهي أن شيئاً لن يحدث فى الوسط الإلكتروني إلا إذا كان المبرمجون قد قرروه من قبل. (7)

إن النموذج الطبوغرافى الموجود فى النص المتشعب - كما تقول عبير سلامة - مقارنة بالكتاب، هو - ببساطة - جمل اعتراضية تصويرية متاحة للربط التفاعلي بفقرات النص، وعلى ذلك تتواجد البنية المقدره، التى تقوده، بوصفها خريطة تراهن على بلاغة الروابط فى تقوية الخيال، وجذب الانتباه للفجوات التى تموه عليها آلية القراءة التقليدية، بكيفية تضمن تغيير علاقة القراء بالنص الأدبي. ويحتاج النص المتشعب إلى نمط قراءة غير مستقيمة، بدون التسلسل المعتاد للمحتوى، ويسمح ذلك لبعض القراء بأن يستخدموه بفاعلية أكبر، مع تزايد قدر المعرفة وتنوع عرضها، فهل يمكن الوصول إلى تعدد بدون فرض مبدأ هيمنة؟! خصوصاً مع استثناء الديمقراطية المستبدة، التى تعترف بالمتعدد وتقصيه فى آن واحد، فتمنحه شرعية وجود وهمية، أو مشروطة بعلامات تقود القارئ فى طريق محدد، لإنتاج دلالة بعينها.

(7) انظر: أندراس كبايوس: النص التشعبي؛ إمكان القراءة الثلاثية الأبعاد، ص 366 - 367.

وتسهم مظاهر النص المتشعب ، على النقيض من المتوقع، في تنمية التذوق والنزوع التأملي، بل وفي وقاية القاريء من الضغوط الأيديولوجية، التي تدعوه بوضوح لقبول، أو التعاطف مع، أشكال ثقافية تخدم مصالح رؤى معينة.⁽⁸⁾

هل يتمتع المبحر في الرواية التشعبية بحرية كاملة وتفاعل مطلق؟ إنه يتمتع بحرية وتفاعل نسبيين، ويكفي القول إن مشاركته إبداعيا في الرواية بالكتابة والتغيير اقتراح الحذف والإضافة يظل رهين كاتب أصلي يحتفظ بحقه في القبول والرفض، وهذا عني - على نحو ما - مركزية المبدع الأول، وأفضل هنا أن أصك له مصطلح "المبدع المركزي". لا يبدو في الأفق حتى الآن بديل لهذه المركزية، وإن كانت هناك إرهابات تكنولوجية على الشبكة تفتح بابا للتفاعل الحر الكامل، وهو ما نرى نموذجها في "ويكيبيديا"، وهي موسوعة تسمح بالإضافة الحرة والحذف بحرية كذلك.

إن للكتاب أثرا قمعيا يتجلى - حسبما تشير عبير سلامة - في وجوده المادي المستقر وكثافته اللغوية، الكتب، نتيجة؛ لذلك، هي ماكينات لإرسال السلطة ونشر المركزية الثقافية، لكن الكلمات على الصفحة المطبوعة تبقى المورد الأكثر فاعلية للتأمل الانتقادي من قبل المتلقي، خصوصا مع تقويض سلطتها بتعزيز هوامش النص المتشعب، النص الذي - سواء في الكتاب أو الشبكة - يمكن أن يحتل موقعا فعالا في نظام التداول الثقافي الحالي، ويسهم جديا في نقد منجز الذات الكاتبة، ومن ثم نقد شروط التفاعل الفكري مع المتلقي، للمشاركة في منظومة الاتصال بدور يفوق دور الكاتب الذي يجتر ذاته في واد، والمتلقي في واد أفضل.⁽⁹⁾

تأخذنا آلية الإبحار في النص التشعبي بعيدا عن النص نفسه، وهو مما يؤثر بشدة في عملية الإيهام، فالعالم الممثل ليس مكتمل الوجود في الرواية، بل هو وجود احتمالي يتشكل فيما بعد، ويعتمد على ما يقوله الراوي. ويمكننا أن نقول إنه ليست هناك رواية بل هناك قراءات، ومؤامرات مرتجلة.⁽¹⁰⁾

ونستطيع هنا ربما بقدر من التجاوز تقرير أن القراءات المتعددة للنص التشعبي الواحد يمكن النظر إليها -مقارنا بطرائق النقل الشفاهي القديم- بوصفها روايات متعددة لنص أصلي يصعب العثور على صيغته الأولى، ومن المحال التنبؤ بعدد صيغته المحتملة أو بطبيعتها.

(8) انظر: عبير سلامة: النص المتشعب ومستقبل الرواية:

<http://nisaba.net/3y/studies3/Studies3/hyper.htm>

(9) انظر: عبير سلامة: النص المتشعب ومستقبل الرواية.

(10) انظر: انظر: عبير سلامة: النص المتشعب ومستقبل الرواية.

من النص إلى النص المترابط

وتحتاج حالة التحول الكبيرة فيما يخص النص في علاقته بالتقنية إلى من يستكشفها ويبحث آفاقها المستقبلية؛ أي إلى رائد لا يكذب أهله. وفي سياق الثقافة العربية يبدو سعيد يقطين رائدا يضع أقدامنا على أول الطريق نحو معرفة راسخة موثقة واثقة من مساراتها في طريق علاقة الثقافة واللغة والأدب بالواقع الافتراضي، وذلك من خلال كتابه "من النص إلى النص المترابط: مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي"، الصادر عام 2005م.⁽¹¹⁾

من المتلقي إلى المبحر المتفاعل

ولعل عنوان الكتاب يذكرنا بكتاب الناقد الفرنسي رولان بارت "من العمل إلى النص" الذي وضع أيدينا على مفهوم جديد للنص يكشف عن انفتاح دلالاته في مقابل العمل المغلق. وكأن يقطين يريد أن يشير إلى نوع من التحول في إبداع النص وتلقيه، وكذلك في مفهومه من قبل ومن بعد. ويثير العنوان بعض التساؤلات حول المفاهيم؛ إذ يشير إلى "النص المترابط" الذي يعني النص الناجم عن استخدام الحاسوب وبرمجيته التي تمكن من إنتاج "النص" وتلقيه بكيفية تُبنى على "الربط" بين بنياته الداخلية والخارجية. "أما الإبداع التفاعلي فهو مجموع الإبداعات (والأدب من أبرزها) التي تولدت مع توظيف الحاسوب، ولم تكن موجودة قبل ذلك، أو تطورت من أشكال قديمة، ولكنها اتخذت مع الحاسوب صورا جديدة في الإنتاج والتلقي". (من النص إلى النص المترابط، ص ص 9 - 10)

ينطلق الكتاب من فرضية ترى أن "توظيف أداة جديدة للتواصل يؤدي إلى خلق أشكال جديدة للتواصل" (من النص إلى النص المترابط، ص 10). هذه الفرضية يتم التحقق منها عبر بحث العلاقة بين الأداة الجديدة (الحاسوب)، والأشكال الجديدة للتواصل التي تبدو في النص المترابط الجامع بين اللغة والصورة والصوت والحركة.

يُفترض في تحقيق التواصل مع النص المترابط وجود عدة أطراف متلازمة هي المبدع (بديلا عن الكاتب)، والنص المترابط (بديلا عن النص)، والمتلقي، والحاسوب (بوصفه قناة الاتصال التي لا يتحقق بدونها وجود النص المترابط). وتؤدي كفاءة علاقة كل تلك الأطراف إلى تحقيق "الإبداع التفاعلي".

(11) عن المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، ط 1.

والتفاعل في الإعلاميات يُعدّ بمثابة "عملية التبادل أو الاستجابة المزدوجة التي تتحقق بين الإمكانات التي يقدمها النظام الإعلامياتي للمستعمل، والعكس. ويمكن التدليل على ذلك من خلال نقر المستعمل على أيقونة مثلا للانتقال إلى صفحة أخرى، كما أن الحاسوب يمكن أن يطلب من المستعمل فعل شيء ما، إذا أخطأ التصرف من خلال ظهور شريط يحمل معلومات على المستعمل الخضوع لها لتحقيق الخدمة الملائمة. وهناك معنى آخر للتفاعل أعم، وهو ما يتمثل في العمليات التي يقوم بها المستعمل وهو ينتقل بين الروابط لتشكيل النص بالطريقة التي تفيده. وهو بذلك يتجاوز القراءة الخطية التي يقوم بها قارئ الكتاب المطبوع. ولقد ظهرت أعمال أدبية (الرواية مثلا) أو فنية (الألعاب، أو الدراما) تقوم على الترابط بين مختلف مكوناتها، وهي تنهض على أساس التفاعل أو القراءة التفاعلية.¹²

ويجدر هنا تأكيد الموقع الجوهرى للحاسوب في عملية التفاعل تلك؛ فالحاسوب ليس "أداة" فحسب، فهو في آن واحد: أداة، وشكل، ولغة، وفضاء، وعالم. فهو بمعنى آخر أشمل: منتج وأداة إنتاج وفضاء للإنتاج وعلاقات إنتاجية. وكل هذه الأبعاد والدلالات التي تحملها مادة "ن. ت. ج" تتحقق في "الإبداع التفاعلي" من خلال "النص المترابط" باعتباره هو أيضا وفي آن واحد: أداة للإنتاج (برنامج) وإنتاجا يتحقق من خلال النص (أيا كانت علامته: اللغة، الصورة، الصوت، الحركة)، سواء جاءت هذه العلامات متصلة أو منفصلة. في هذا "الإبداع" التفاعلي يتحقق "التفاعل" في أقصى درجاته ومستوياته:

- بين المستعمل للحاسوب والحاسوب من جهة (لأن بينهما علاقة)، وبين العلامات بعضها ببعض (لكونها مترابطة) من جهة ثانية، وبين المرسل والمتلقي، حيث يغدو المتلقي للنص المترابط بدوره منتجا، بالمعنى التام للكلمة، من جهة ثالثة¹³.

يبحث كتاب سعيد يقطين في "طبيعة النص المترابط وفي الإبداع التفاعلي وفي شروط إنتاجه وتلقيه، وذلك عبر تأطير كل ذلك في نطاق ما نسميه بـ"الوسائط المتفاعلة" باعتبارها تتصل بالمجال الذي نوّطر ضمنه الإبداع أو التواصل (بين المبدع والمتلقي) والذي يتحقق باستخدام الحاسوب"¹⁴، ومن ثم يتساءل عما أضافته هذه الوسائط المتفاعلة إلى الإبداع والأدب، وعما يمكن أن يجنيه المبدع والمتلقي من جراء تفاعلها معا، واستخدامهما هذه الوسائط في التواصل.

¹² سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 259.

¹³ سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 10.

¹⁴ سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 11.

واقع علاقة الثقافة العربية بالفضاء التخيلي:

هدف الكتاب إذن -بحسب يقطين نفسه- هو "دفع كل من المبدع والمتلقي العربيين إلى تكوين فكرة وتحصيل معرفة أولى عن النص المترابط وعن الإبداع التفاعلي وعن الوسائط المتفاعلة، وإلى خوض غمار "التجريب"؛ تجريب مغامرة جديدة في الإبداع والتلقي، أي في التواصل. ثم إذا نجحنا في ذلك، فمعناه أننا بصدد الدخول إلى حقبة جديدة من التفكير والبحث في: الإبداع والفن والأدب والنظرية الأدبية، والمجتمع، والتواصل، وبتعبير آخر، نكون أمام رؤية وممارسة جديدة للثقافة وللنفس وللإنسان"¹⁵

يأتي هذا الكتاب ضمن "حزمة" من الجهود العربية للولوج إلى هذا العالم الخصب؛ عالم الفضاء التخيلي في علاقته بالأدب، وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن فكرة إنجاز هذا الكتاب -كما يقول يقطين- كانت جاهزة للإعداد النهائي في أواخر سنة 1999، وناقش بعض أفكاره في لقاءات فكرية متنوعة ثم كان وجوده في فرنسا خلال الموسم الجامعي 2002-2003م حافزا لإنهاء الكتاب؛ إذ تبدت أمام عينيه المجهودات الفرنسية في هذا المجال على الرغم من تأخرها النسبي عن نظيراتها الكندية والأمريكية، وبدا له أن "أي تأخر في ولوج عالم الوسائط المتفاعلة في حقلنا الثقافي العربي لا يمكن إلا أن يضاعف تأخرنا عن المشاركة في عالم "التواصل" الحديث، فكان الإقدام على هذه المغامرة: نشر هذا الكتاب."¹⁶

وأشير هنا أيضا إلى أن مقدمة الكتاب أنجزت في 25 يناير 2000م، كما أن بعض فصول الكتاب أنجزت قبل أن يدفع إلى المطبعة بكتابه الأسبق "الأدب والمؤسسة والسلطة" (المركز الثقافي العربي، بيروت، 2002م) وهو كتاب يعد وثيق الصلة بكتابه الأخير الذي نحن بصدد مناقشته.

وقد سبق هذا الكتاب عملان بالعربية أشار إليهما يقطين هما:

- 1- النص المترابط (الهايبرتكس): ماهيته وتطبيقاته، أوديت مارون بدران وليلى عبد الواحد فرحان، المجلة العربية للمعلومات، م. 18، ع. 1، تونس 1997.

¹⁵ سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 12.

¹⁶ سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 13.

2- الأدب والتكنولوجيا وجسر النص المفرع، حسام الخطيب، المكتب العربي لتنسيق الترجمة والنشر، 1996.

ويجب الالتفات إلى أن هناك جهوداً لم يشر إليها يقطين، ومنها جهود القاص الأردني محمد سناجلة على مستوى التنظير والإبداع، فقد كتب روايته "ظلال الواحد" كما كتب دراسة نقدية بعنوان "رواية الواقعية الرقمية" (نشر الكتاب بنسخته الرقمية عام 2003 على موقع ميدل إيست أون لاين، ونشر على شكل فصول ومقالات على صفحات جريدة الرأي الأردنية عام 2002-2003م، كما نشرت فصول منه على موقع الرأي الإلكتروني في الفترة نفسها، ونشر بنسخته الورقية عام 2005 عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت وعمان).

لكن هذه الجهود تظل نوعية، ويأتي كتاب يقطين ليعطي تأسيساً معرفياً أكثر شمولاً، وهو في هذا السياق يعد استكمالاً -من بعض الزوايا- لكتابات نبيل علي؛ ومنها: "العرب وعصر المعلومات" (1994) و"الثقافة العربية وعصر المعلومات"، (2001م).

ويبدو أن عدم التواصل الكافي بين المشرق والمغرب جعل يقطين لا ينتبه إلى أن المؤتمر الدولي الثاني للنقد الأدبي الذي عقد بالقاهرة في نوفمبر عام 2002م قد خصص أحد محاوره للموضوع تحت عنوان "النص الشعبي"، وأسهم فيه بعض الباحثين الغربيين والعرب.

الثقافة العربية ورهانات المستقبل:

يتميز كتاب يقطين بأنه ينقل عن الثقافة الغربية على نحو يعي هموم الثقافة العربية، ويسعى إلى إدراجها في المنظومة الكونية؛ ومن ثم يرى في الباب الأول أن أمام الثقافة العربية رهانين اثنين يمكن "اعتمادهما أساساً للتفكير في ما أنجز، واتخاذهما ركيزة للعمل فيما ينبغي أن تكون عليه الأمور في التصور والممارسة لتضطلع هذه الثقافة بدورها في المجتمع العربي. هذان الرهانان هما:

1- دخول العصر، والعصر الإلكتروني، أو ما يسمى عصر المعلومات.

2- أن يكون لها موقع، ووجود وتأثير ضمن باقي الثقافات.¹⁷

¹⁷ سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، صص 17-18.

ويرد يقطين على من يناوئون ذلك الموقف، إذ يرون هذين الرهانين نوعا من التهافت على كل ما هو غربي، بأن الإنتاج الثقافي والمعرفي في كافة أشكاله ذو بعد إنساني وأنه يتفاوت بتفاوت التجارب والأمم، وأن تلك التجارب تتبادل التأثير والتأثر. هذا الموقف الجوهرى من المعرفة يدفع يقطين إلى استبعاد مفهوم "المحاكاة" على الصعيد الثقافي ليحل محله مفهوم "التفاعل".

هذا يعني أن الكتاب يحاول أن يضع "الأنا" العربية في مقابل "الآخر"، بدون إحساس بالضعف والانهماز، وبدون إشهار سلاح الرفض الجاهز، بل يقدم رؤية منفتحة تقدر إنجاز الآخر (الذي أفاد بدوره من الأنا العربية وسيظل قابلا لأن يأخذ إذا ما أصبح لنا موقع متميز فعال على خارطة الثقافة الإنسانية المعاصرة)، كما تبدو رؤية متفائلة بالقدرة الذاتية على الأخذ والعطاء (أو لنقل التفاعل).

ينقد يقطين المثقف العربي ويسمه بالتقليدية، ويدعو إلى الولوج بقوة إلى عصر المعلومات. ففي رأيه أن "المثقف الذي يظل بمنأى عن التعامل مع الإنجازات الجديدة، وعن العمل من خلالها في مجال تخصصه أيا كان، يظل في رأيي مثقفا تقليديا مهما كان عطاؤه في اختصاصه. إنه تقليدي لكونه لا يمتلك "لغة" جديدة للإبداع: الإنتاج والتلقي. وحين نستعمل مفهوم "المثقف" هنا بإطلاق، فإننا نقصد به المبدع في المجال الأدبي والفني، والفنان والصحفي والسياسي والفقيه والباحث في أي مجال من مجالات المعرفة سواء كانت تتصل بالاجتماعيات أو الإنسانيات أو بمختلف العلوم الأخرى.

وإذا كان عصر المعلومات قد أفرز اختصاصات شتى ترتبط بالمعلومات وكيفيات صناعتها وتوظيفها، فإنه بذلك أدى إلى ظهور "تقنيين" مختصين في مختلف هذه المجالات. يظل نطاق عمل هؤلاء التقنيين محدودا وضيقا إذا ما كان ينحصر في دائرة "العمل التقني" المحض. لا بد لهم من الانفتاح على مجالات أخرى معرفية لتوسيع إطار عملهم، تماما كما أن على "المثقفين" التقليديين الانفتاح على المجالات التقنية. أما إذا بقي كل منهما (التقنيون، المثقفون) منغلقا على نفسه فلا يمكن الاضطلاع بالدور الثقافي على النحو الأمثل. وسيبقى تبعا لذلك كل منهما تقليديا محضا، أو تقنيا محضا.¹⁸ ويضرب يقطين نموذجا للمثقف الحق ممثلا في الدكتور نبيل على الذي جمع بين الثقافة بمعناها الواسع، ومعرفته المتخصصة في مجال الهندسة والتكنولوجيا.

¹⁸ سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 30.

النص المترابط ورؤية العالم:

لم يتم تأسيس النص المترابط في إطار تطورات تكنولوجية فرضت نفسها وحسب، بل تم تأسيسه في إطار رؤية كلية للعالم تربط كل عناصره الطبيعية وغير الطبيعية (الآلية)، ويحاول يقطين إثبات تلك العلاقة الوشيجة بتأكيد أن النص المترابط نشأ في حضان الثورة السيبرنطيقية التي لاحت بداياتها منذ عام 1940م. وهذه الفكرة جوهرية لأنها ستكشف لنا أن التحول من النص الكتابي (على مستوى الإبداع) ليس متعسفا بل يرتبط على نحو وثيق برؤية العالم.

ولكن ما السيبرنطيقا؟ إن السيبرنطيقا التي تعني التحكم باستخدام البعد المعلوماتي تولدت من فكرة جوهرية تكشف عن نوع جديد من العلاقات بين العناصر المتفاعلة. كانت العلاقة القديمة تقوم على أساس خطي يرى أن السبب أ يؤدي إلى النتيجة ب، لكن حصيلة التفكير والتجريب أدت إلى أن تستبدل بهذه العلاقة علاقة أخرى تنهض على "السببية الدورية" القائمة على أساس "الارتداد السلبي". لكن ظروف الحرب لم تسمح بتعميق هذه الفكرة. أبرز وينر أنه منذ القدم كان الاعتقاد السائد هو أن السبب يولد النتيجة، بينما في "السببية الدورية" نجد أن العنصرين "أ" و "ب" هما معا وفي آن واحد سبب ونتيجة لكل واحد منهما. فليست "أ" هي التي تؤثر في "ب"، ولكن "ب" بدورها تؤثر رجوعا (ارتداد سلبي). إن "أ" لا يمكنها أن تؤثر في "ب" بدون أن تتأثر هي أيضا. وتبين لمختلف المختصين أن فكرة "السببية الدورية" يمكن تطبيقها على الكائنات المختلفة: الحية وغير الحية. وبين وينر أن آليات الانتظام الذاتي يمكن أن توجد عند الإنسان والآلة سواء بسواء، مقترحا بناء على ذلك ربط آلية نظريات آليات التحكم في الآلة والبيولوجيا والعلوم الإنسانية والنفسية والاجتماعية بموضوعة واحدة هي "التواصل".¹⁹

النص المترابط في إطار النقد الأدبي:

لقد سبق أن استخدم الناقد الفرنسي "جيرار جنيت" مصطلح المتعاليات النصية للإشارة إلى مختلف العلاقات بين النصوص، وجعل من الإمكانيات التي تتدرج تحته "التعلق النصي" و"التناص"، وهما مفهومان أساسيان في مجال النقد الأدبي. لكن دخول النص الإلكتروني بقوة إلى السياق المعرفي يدفع المهتمين به -ومن بينهم يقطين- إلى تبني مصطلح جديد هو "التفاعل النصي" في مقابل "المتعاليات النصية"، وإلى استخدام "الترباط النصي" في مقابل "التعلق النصي". السبب في ذلك أن العلاقات التي

¹⁹ سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 92.

سبق أن أشار إليها جنيت تربط -في علاقة خطية- بين نص لاحق وآخر سابق، وهي علاقة وثيقة الصلة بالنصين الشفاهي والكتابي، أما النص الإلكتروني فأدى إلى وجود علاقات ومفاهيم جديدة، فالترابط النصي يتجسد -في النص الإلكتروني- من خلال الروابط التي تتم من داخل النص نفسه، ويسمح لنا هذا بالانتقال داخل النص وفق ما تستدعيه عملية القراءة، كذلك لا يتيح لنا الترابط التحرك بين النصوص اللفظية فقط، بل الانتقال كذلك بين علامات غير لفظية، مثل الصوت، أو الصورة، أو الخارطة، أو اللوحة، أو الصورة الحية أو المتحركة، ويعرف هذا التوسيع بـ "ترابط الوسائط". "ومعنى ذلك أن مفهوم الترابط يتجاوز "اللفظي" إلى أنظمة متعددة. وهذا الشكل من الترابط بمعنييه ما كان ليتحقق لولا التطور الذي تم مع استخدام النص الإلكتروني، وتوظيف الوسائط المتعددة. وعلى الرغم من التباين المسجل بين التعلق النصي والترابط النصي، فإننا نراهما معا يرتبطان بـ "التفاعل النصي" بوصفه مفهوما جامعاً يتسع لمختلف العلاقات بين النصوص، سواء كانت لفظية أو غير لفظية، وسواء قدمت شفاهياً أو كتابةً أو إلكترونياً." 20

وإذا كان النص الإلكتروني المترابط يتسم -من ناحية العلاقة بالنصوص- بأنه "يتضمن" نصوصاً مثلما يفعل النص العادي، فإنه يختلف عنه في أنه "ليس خطياً" كما أنه لا يعتمد على "التلفيز" أي نقل النص الآخر من نظام العلامات غير اللغوي ومنحه بعداً لفظياً، بل يعتمد على "تعدد الوسائط".

التراث والنص المترابط:

وليس مفهوم الترابط النصي ببعيد عن الكتب القديمة التي قد تضم عدة كتب (الحواشي والهوامش وغيرها)، بحيث يمكن الانتقال من النص إلى النصوص التي يترابط معها، كما أفاد القدماء في نصوصهم من الاستخدام الدال للألوان، وعلى هذا فإن "الترابط النصي ليس فقط سمة للنص الإلكتروني. إننا نجده كذلك في النص المكتوب. وبهذا التصور نرى أن التفاعل النصي يظل المفهوم الجامع الذي يستوعب مختلف العلاقات النصية التي تتحقق في أي نص، وأن لائحة الأنواع التي تم تحديدها لضبط هذه العلاقات ليست نهائية ولا كاملة. وكلما تطورنا في فهم النص ومجمل علاقاته أمكننا الانتهاء إلى تحديد أنواع أخرى، وأن أنواع التفاعل النصي المحددة إلى الآن تتحقق في النص المكتوب والنص الإلكتروني بما في ذلك التعلق النصي. لكن "الترابط النصي الذي وضع لتجسيد العلاقة داخل النص الإلكتروني، يتحقق داخله بناء على اعتبارات خاصة بطبيعته النصية (اللاخطية - تعدد الوسائط)،

²⁰ سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 102.

لكننا يمكن أن نجده كذلك في غير النص الإلكتروني، لكن من خلال "التلفيز" أي السمة الأساسية التي يتجسد بواسطتها النص المكتوب.²¹

يحاول الكتاب أن يكشف الجذور الكامنة في التراث العربي، والتي يمكن أن تعد تمهيدا لإبداع تفاعلي، وهو يقوم بذلك من منطلق محاولة قراءة القديم في ضوء ما توافر من معرفة جديدة. وهي رؤية تفتح الباب أمام تغيير بعض مفاهيمنا حول تشذّر الشعر القديم وحول بعض الإبداعات التي شغلت بالتشكيل البصري وعدّها بعض الباحثين إهداراً للشعرية.

وقد رصد يقطين واقع الإبداع الشعري والسردى، وانتهى إلى وجود أزمة حقيقية في التواصل تستدعي استلهاً مفهوم التفاعل في ظل ترقيب إنتاج إبداعات تفاعلية تنهل من التراث وتفيد من الطبيعة الخاصة للإبداع التفاعلي، من حيث إمكان الإفادة من مجموعة من المكونات اللفظية وغير اللفظية، لتحقيق صور متعددة من التفاعل بين المبدع والمتلقي، بشرط تحقيق الكفاءة على مستوى كليهما. ومع الإبداع التفاعلي يمكن الحديث عن الفن المتكامل الذي يتجاوز فيه الصوت والصورة والحركة؛ "حيث المتلقي جزء أساس من عملية الإبداع، فهو يشارك فيها كمبدع تتحقق إبداعيته من خلال مساهمته في العملية نفسها. لم يبق المتلقي مكتفياً بمتابعة النص بعينه، إنه "يكتب" النص بطريقته الخاصة وهو ينقر على الفأرة ويتحرك في جسد النص وفق اختياراته وإمكاناته، وبذلك يبدع نصه من خلال النص الذي يقرأ (هل نقول الآن بصريح اللفظ: "النص الذي ينتج"؛ لأن لفظة "الإنتاج" تكتسي هنا وضعاً أوضح من السابق. هذا الإبداع التفاعلي هو رهان الإبداع غداً". (من النص إلى النص المترابط، ص 243)

أنواع النص المترابط وطرائق القراءة:

إن ظهور أنواع مختلفة للنص المترابط يدعو بالضرورة إلى ممارسة أشكال جديدة من القراءة. فمن أنواع النص المترابط نمط بسيط يضم النص التوريقي والشجري والنجمي، وكل منها نوع يقترب من الكتاب المطبوع؛ فهو "يخضع لبنية شبه خطية ولمسارات مضبوطة ومحدودة، كما أن الروابط فيه محدودة ومقيدة بقيود دلالية أو منطقية أو سببية أو ما شاكل ذلك من العلاقات التي تتحدد بواسطتها الصلات بين العقد." ²²

²¹ سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 108.

²² سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 142.

أما النوع الآخر فإنه مركب، ومنه النص التوليقي والجدولي والشبكي، وكل منها يعد "أبعد ما يكون عن الكتاب المطبوع وعلى كافة المستويات، لذلك يمكن اعتباره النص الذي تتحقق فيه السمات الجوهرية للنص الإلكتروني الجدير بهذه الصفة. فعدد روابطه لا حد له، وهو منفتح على كل مكوناته، ويسمح للقارئ بأن يتفاعل معه بصورة لا نجدها في أي نص آخر. وهذا النمط المركب هو المقصود (ضمناً أو مباشرة) بالنص المترابط في مختلف الدراسات أو الأبحاث التي ترصده أو تنظر له.²³

ولنركز هنا على النص الشبكي الذي "ينهض أكثر من غيره على أساس متطور من العلاقات الموسعة بين مختلف عناصره ومكوناته، وما على المستعمل سوى اختيار العلاقات التي يريد إقامتها بين العقد المختلفة وكذا الروابط اللانهائية بين مختلف المواد، وبحسب القصد الذي يريد.

يتصف هذا النوع بأنه هو الأكثر تفاعلية ودينامية وتشعباً... إنه يتميز عن غيره بالترابطية الشاملة إذ هي السمة التي تحدد مجمل العلاقات بين كل أجزائه المختلفة. ويجسد هذا النوع البعد الافتراضي للنص المترابط، لأن المستعمل يمكنه أن يتحرك بين العقد المختلفة حسب اختياره، وبذلك يمكنه أن ينتج "نص (هـ) المترابط" الخاص به. ويبدو ذلك بسبب كون أي عقدة فيه مهما كان حجمها (من الحرف إلى الكتلة) تتيح إمكانية الوصول إلى عقدة أخرى. لذلك نجد بعض المختصين يعتبر هذا النوع هو الذي يجسد لنا "النص المترابط" بامتياز. بل إنه وحده الذي يمكن تخصيصه بسمة النص المترابط كما يذهب إلى ذلك الباحث المتخصص في النص المترابط (دافيد س. مبال)²⁴

إن النص المترابط الشبكي يمكن المستعمل من البحث الحر، وإنجاز نصه المترابط الخاص به. ولإعطاء مثال لذلك يمكن للمشتغل بموسوعة أونيفيرسالييس أن يختار محور "الأدب" مثلاً، فيجد نفسه أمام عدد لا محدود من المواد التي يمكنه أن يصنفها، ويرتبها وفق رغبته: حسب الزمان، الفضاء، أو الموضوعات، ويمكنه أن يكون ملفات خاصة، يمكن لكل منها أن يشكل خزانة خاصة به تفيده في تحصيل المراد.

إن هذا النوع يبين لنا بجلاء الدور الكبير الذي يضطلع به القارئ في "إنتاج" النص الذي يتفاعل معه. لذلك يعتبر هذا النوع بمثابة "شبكة" تتشكل من عدد غير محدود من الوثائق، وأي قارئ لا يمكنه

²³ سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 142.

²⁴ سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 140.

أن يستثمر إلا ما هو في حاجة إليه ... إن شبكة النص المترابط ذات طبيعة لا محدودة ولا نهائية. وهذا ما جعل هذا النوع هو أرقى أنواع النص المترابط، وأقدها، وأكثرها تجسيدا للتفاعل.²⁵

وعلى هذا يمكن القول إن دور المتلقي جوهري في إنتاج النص، إذ يصبح -أي المتلقي- ممتلكا لإمكانات هائلة في الحركة والخلق تجلّ عن الحصر.

النص المترابط : إرهاب بأنواع أدبية:

كذلك يدعونا ظهور النص المترابط بأنواعه المتعددة إلى إمكان الحديث عن "الأدب التفاعلي" بوصفه "جنسا جديدا في الإبداع الأدبي، ويتجسد من خلال الرواية التفاعلية (Hyperfiction) أو المسرح التفاعلي (Hyperdrama) وسواهما من الأنواع الأدبية الجديدة، التي يبدعها الأدباء الجدد (أمريكا/ أوروبا/ آسيا) في توافق تام مع مقتضيات "التفاعل" وضروراته برمجيا وإلكترونيا وجماليا ودلاليا، وبقصد خاص للإنتاج في ضوء ما يقدمه من إمكانات."²⁶

ويرصد يقطين -وبحق- واقع كتابة النص المترابط في الثقافة العربية، مؤكدا أنها لا تزال "محدودة جدا بل أشبه بالمنعدمة، ودونها الكثير من القيود التي ما تزال تفتل من أهمية الانتقال إليها في الوعي والممارسة."²⁷

ويشير في هذا السياق إلى أنه "إذا كانت التقاليد الكتابية (الإبداعية، النقدية) في الغرب قد استفادت من التطورات الحاصلة في فهم "النص" من منظور جديد يقوم على الشذرات، والانفتاح، وما شابه هذا من المقومات، هي التي أدت، بسبب التطور الطبيعي للأمور، إلى ظهور "النص المترابط"؛ فإن التقاليد الكتابية العربية (وبالأخص الرواية التجريبية وبعض الدراسات النقدية الجديدة)، عرفت في جزء منها هذه التصورات، وإن لم تتحول أفقيا وعموديا على النحو الذي تحقق في الغرب لأن الآخذين بها والمستعملين لها إبداعيا ونقديا كان لديهم الحماس الزائد لاقتحام الجديد أكثر مما كانت لديهم رؤية عميقة لما كانوا يمارسون.

²⁵ سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 141.

²⁶ سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص ص 142-143.

²⁷ سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص ص 146-147.

لذلك فالكتابة العربية في مختلف تجلياتها مدعوة، استجابة لضرورات التطور وإلحاح الانتقال إلى مستوى آخر من إنتاج النص وتلقيه؛ إلى الانتقال إلى الوعي بضرورة فهم جديد لـ "النص"، وبأهمية "الكتابة المنظمة"، وصيرورتها الطبيعية "الكتابة الترابطية". وكلما تأخرنا في إنجاز هذا التحول على صعيد الوعي والممارسة كان تأخرنا ليس فقط في إنتاج وتلقي "النص" و"النص المترابط"، ولكن أيضا في الاستفادة من الروافد التكنولوجية واستثمارها الاستثمار الأمثل في إنتاج معرفة جديدة، وفي الارتقاء إلى أفق جديد للتواصل من خلال المفاهيم، وبواسطتها، وبتوظيف الوسائط الجديدة للاتصال والتواصل والتطور.²⁸

ليس كل نص رقمي نصا مترابطا بالضرورة!

ويلفت يقطين نظرنا إلى أن عدم انكاء نص ما على الترابط يقصيه تلقائيا عن مفهوم النص الجديد؛ إذ "إننا بدون استثمار تقنيات وآليات "النص المترابط" لا يمكننا أن نتحدث عن النص الجديد" لأننا لم نعط لـ "الترابط" (باعتباره سمة جوهرية) ما يستحق من العناية. والمقصود بذلك إبراز وتجسيد البعد "الترابطي" في النص. لا يمكننا أن نتحدث عن النص العربي الجديد حتى وإن قدمناه على الشبكة، واستعملنا تقنيات الحاسوب (برمجيات) لأننا في الحقيقة ننتج نصا "لا ترابطيا" (لأن بعده الخطي يظل هو الأساس)، والسبب هو أن تصوراتنا عن النص غير ملائمة وما تزال ترتحن إلى رؤية ما قبل ترابطية للنص.²⁹

وهذه مسألة جوهرية تفتتنا إلى أن الكثير مما يروج له في سياق إعلامنا المتواضع (وعلى الصفحات العربية بالشبكة العالمية نفسها) ليس سوى غناء لا يستحق ما ينفق فيه من مِداد (أعني ضربات على لوحة المفاتيح).

وإذا كان الكتاب يستخدم كلمة "مدخل" في عنوانه الفرعي، ومن ثم يعطي بعض الأفكار المؤسسة للموضوع، كما يناقش ما قد يراه كثيرون بدهيات أو استطرادات زائدة؛ فإنه يقدم كذلك بعض الإسهامات اللافتة خصوصا فيما يتعلق بربط الموضوع بإنجازات النقد الحديث وبالتراث كذلك. كما أنه يتحمل مسئولية رصد أزمات الإبداع العربي المعاصر ويقترح الحلول التي ترتبط بفرضياته، كذلك يؤسس الجهاز المفاهيمي والاصطلاحي في سياقه ببذل جهد يحسب له.

²⁸ سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 149.

²⁹ سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص 167.

بهذا كله يصبح الكتاب دعوة مخصصة إلى العرب جميعا لكي يلجوا إلى ذلك العالم برؤية واضحة ومسئولية ووعي، ومن ثم ينتهي بدعوة تكتسي بثوب التساؤل: "متى نقرأ أول رواية تفاعلية؟ ومتى نقرأ الشعر والدراما التفاعلية؟ ومتى نشاهد الفيلم التفاعلي؟ ومتى تصبح برامجنا المتصلة بالتراث العربي ترابضية؛ أي الكترونية بالمعنى الحقيقي للكلمة؟ ومتى يمكن لأطفالنا - غدا وبعد غد - أن يجدوا بين أيديهم الخيال العربي والتراث العربي مجسدا أمامهم، ويتفاعلوا "يلعبوا" معه بصورة جديدة لم تتح لأجيالنا ولا للأجيال السابقة؟

أسئلة كثيرة تفرض نفسها، وهي أسئلة لا تتصل بالإبداع فقط، كما يمكن أن يتوهم من يجتزئ الأشياء. إنها أسئلة - وهي تتصل بالإبداع والأدب والفن - تتصل أيضا بالاقتصاد، والسياسة والاجتماع والإعلاميات، والتكنولوجيا، واللغة العربية، والأمة العربية والثقافة العربية والتراث العربي والماضي العربي والمستقبل العربي.³⁰

الطريف في الأمر أن المشاكل التي رصدها يقطين يؤكد صدقها أن كتابه نفسه لم يلق أي اهتمام يذكر على الشبكة العالمية حتى الآن، وتستطيعون بأنفسكم أن تبحثوا عن شيء ذي بال (أو غير ذي بال!) لتتقنوا من هذا الزعم. وهذه إشارة أخرى تدعونا إلى التواصل الحقيقي مع هذا الكتاب، والتعامل مع قضاياها بجدية، وتلقيه تلقيا جادا بوصفه دعوة صادقة إلى معرفتنا بذواتنا، وإلى العمل على الانخراط في العصر "بوعي ومسئولية".

تأثير الإنترنت على أشكال الإبداع والتلقي:

تحت هذا العنوان يأتي الكتاب الأول لإيمان يونس متعلقا بالنص التفاعلي. وهناك علامتان سياقيتان لافتتان عند إثارة الجدل حول هذا البحث الفريد؛ أولاها أننا بإزاء عمل يحاول المشاركة الريادية في مجاله؛ إذ تظل الأعمال التي تركز اهتمامها على النصوص الرقمية بتجلياتها المختلفة نذرا يسيرا بالقياس إلى ما نؤمله منها في الثقافة العربية. أما العلامة اللافتة الأخرى فتتعلق بالباحثة نفسها؛ فهي واحدة من الأجيال الجديدة المنتمية إلى فلسطينيي 48 الذين نذروا أنفسهم للتواصل مع الثقافة العربية، وشق دروب في صخورها الوعرة، وإقامة جسور تواصل مع رفاق الطريق من الباحثين العرب، في ظل حرمان العرب في الداخل الفلسطيني من تنسم نسائم الثقافة العربية بحرية كاملة، وحرمانهم من التواصل الفعال مع إخوانهم من العرب خارجها، سواء أكان هذا الحرمان بضغط من الداخل أم من المحيط العربي ذاته، وهي

³⁰ سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، ص ص 244-245.

قضية شائكة لا تزال بحاجة إلى كثير من التأمل والنقاش الجاد. ولعل أهم ما يلفتنا في هذا الكتاب - للوهلة الأولى - هو اتساع الرؤية وشمولها، والحرص على وضع القارئ العربي في قلب الخريطة الواسعة للنصوص التي تتخلق إبداعيا على الشبكة الدولية.

يركز الكتاب على النص المترابط الذي وإن كان يتسم - من ناحية العلاقة بالنصوص - بأنه "يتضمن" نصوصاً مثلما يفعل النص العادي، فإنه يختلف عنه في أنه "ليس خطياً" كما أنه لا يعتمد على "التلفيز" أي نقل النص الآخر من نظام العلامات غير اللغوي ومنحه بعداً لفظياً، بل يعتمد على "تعدد الوسائط". ولا شك في أن اعتماد النص المترابط على الترابط يجعل له ملامح بلاغية خاصة، وهذا يتضح من خلال مقارنته بالنص الأدبي الخطي، من حيث عناصر دائرة التواصل، وخصوصاً ما نراه من اختلاف واضح في طبيعة المتلقي ودوره، وفي طبيعة قناة التوصيل، وكذلك في مادة التواصل اللغوي ذاتها. وهذا الكتاب ينهض على وعي دقيق بنظرية التواصل، ويلتفت على نحو خاص إلى عناصر الرسالة وقناة التوصيل والشفرة والمتلقي.

ولعل هذا العنصر الأخير قد نال من اهتمام الباحثة نصيب الأسد، وليس هذا بعجيب إذا وضعنا في الحسبان أنها ترى أن عنصر القوة الأصيل في النصوص على الشبكة يتمثل في بعدها التفاعلي وهو ما لا يتحقق إلا بالحضور الجلي للمتلقي، وليس هذا ببعيد عما يلتفت إليه الكتاب مما يحدثه المنجز الأدبي المتمرد على الخطية من أثر في تحولات النظريات الأدبية والنقدية وجهازها المفاهيمي والاصطلاحي، كما في نظرتي الأجناس الأدبية والتلقي.

وإذا كان النص المترابط (أو الشعبي) يفترض -لتحقيق التواصل- وجود عدة أطراف متلازمة هي المبدع (بديلاً عن الكاتب)، والنص الشعبي (بديلاً عن النص)، والمتلقي، والحاسوب (بوصفه قناة الاتصال التي لا يتحقق بدونها وجود النص الشعبي)؛ فإن كفاءة علاقة كل تلك الأطراف هي التي تؤدي إلى تحقيق "الإبداع التفاعلي". وقد اهتم الكتاب بهذه العناصر مجتمعة، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة.

ويمكن تحديد صور التفاعل مع النصوص المترابطة في أربعة وظائف للمتفاعل؛ وهي التأويل والإبحار والتشكيل والكتابة؛ فالتأويل ملازم لكل قراءة، ولكن يضاف إليه أن المتفاعل يختار مساره الخاص في إبحاره، كما يشكل العمل من خلال إضافة روابط جديدة وغير ذلك من صور التشكيل التي تعني أن المتفاعل يغير في العمل في إطار حدود معينة، وأخيراً فإنه يستطيع المشاركة في كتابة العمل سواء أكان ذلك على مستوى النص أو البرمجة نفسها، وهو ما يعني تحول دور القارئ إلى أن يكون مؤلفاً. وقد رأينا الباحثة تركز على مجمل هذه العناصر المؤثرة، سواء أكان تحليلها للنصوص الشعرية أم للنصوص السردية.

وقد أحسنت الباحثة صنعا بتنوع اختياراتها النصية، بحيث راعت التنوع القطري والجنسي (الذكوري والأنثوي)، كما راعت التنوع الأجناسي ما بين الشعر والنثر، حيث اهتمت بنصوص نشرت على الشبكة ركزت على جماليات فضاء الإنترنت، كما كان لها اهتمام بالواقع الافتراضي، وهو ما يجد أمثلة أخرى تتوالى لعل من أواخرها رواية (في كل أسبوع يوم جمعة) للروائي المصري إبراهيم عبد المجيد، وهي رواية تقوم على أساس سرد المدونات وتفاعل الشخصيات المشاركين في الشبكات الاجتماعية. ولاشك أن ما حدث من تفاعل بين ما هو نصي وما هو واقعي في الثورة المصرية في 25 يناير 2011، وفي غيرها من الثورات العربية، سيكون مصدر إلهام للمبدعين، ومادة بحثية ثرية لإيمان يونس وأضرابها من الباحثين الجادين الولوعين بالشبكة وما تحفل به من تفاعل إبداعي خلاق.

إن هذا البحث بما يحتويه من مادة ثرية على مستوى التنظير والتطبيق ليستحق منا كل الثناء؛ لاتساع أبوابه ومصادرها، وغنى التحليلات النصية فيه، والحرص على سبر أغوار النصوص في علاقاتها بالعالم الافتراضي وجماليات الإبداع الرقمي؛ وإن كان التركيز قد انصب على الجانب الدلالي والثيمي والتقني، لكننا مع ذلك يطل علينا من أن إلى آخر بعض التحليلات النصية المعمقة الشاملة لبعض النصوص الشعرية كما في الفصل الثاني من الباب الثاني، وهو ما نحمدها عليه بكل تأكيد.

وقد حاولت الباحثة -قدر استطاعتها- ألا تكتفي بالرصد والتحليل المتأني للنصوص، بل أن تُعمل أدواتها البحثية المرهفة لتمنحنا ما يكفي من المفاتيح بحيث يمكن الحكم على النصوص، حتى لا ننزلق إلى القول بأن كتابة النصوص المترابطة أو التفاعلية هي مزية في حد ذاتها، بل نتحرك صوب القول بتفاوت النصوص بحسب أقدار مواهب مبدعيها. كذلك كذلك جهدت الباحثة في تحليل الوشائج بين النص والرؤية، وصولاً إلى مدارج التأويل؛ فالعيون تتطلع في هذا السياق الإبداعي الجديد إلى تلك الأعمال الأدبية التي تدمج الإمكانيات الرقمية بوصفها جزءاً من البنية الدالة، وتوسع من مدى التعبير الأدبي، ولعل هذا البحث الجاد يكشف للمبدعين عن الكثير مما يخبئه لهم النص المترابط -بتجلياته المتنوعة- من إمكانيات بلاغية جديدة بأن يدخلوا إلى عالمها ليفتروا لنا بكاره عالم لا يزال واعدًا.